الفصل الخامس عشر

من وراء الأستار

وتساءل "ياسر" في أسى:

-هل رأيتِ يا "جهاد" إعلان زفاف "حياة" من المدعو "ألبرت".. لقد تصدر هذا الخبر جميع شاشات الأخبار، ويقولون أن الزفاف سيُقام في نادي "لاس كابناس" بتل أبيب.. ويا له من عارٍ سيلحقنا إن لم نستطع إنقاذها.

القيادة لم تضع لنا خطةً كاملةً، ولم تأمرنا سوى بالوجود عند الباب الخلفي للنادي فجنود الحراسة يعملون لحسابنا هناك.. لا أفهم كيف تضع القيادة خطة بهذه السخافة؛ لإنقاذ شخصية على قدرٍ عالٍ من الأهمية مثل السيدة "حياة".. لابد أن اليهود قد استعدوا لحدوث عملية اختطاف مثل هذه.. ولابد أنهم قد قاموا بتأمين مخارج ومداخل تل أبيب؛ لذلك تقول القيادة إنه بعد أن ننجح في تهريب "حياة" من النادي سنقوم بإخفائها في إحدى الأبنية الموجودة في أول الشارع.

ومن الطبيعي أن يقوم الأمن بتفتيش كل الأبنية الموجودة كإجراءٍ طبيعي من المفروض أن يحدث في مثل هذه الحالات.

-وربما لأن القيادة قد استبعدت فكرة وجودها بهذا المكان القريب وغير المتوقع، ولربما أيضاً قد قدروا خطورة الهروب من تل أبيب وسط هذا التأمين المكثف.

-لا أدري لكن يليق بالمقاومة أن تضع خطة محكمة؛ لإنقاذها لقد كان "عبدالرحمن" سبباً في أسرها و"عبدالرحمن" منا ويجدروا بنا تصحيح خطأه.

وتحدثت "جهاد" بهدوءٍ قائلةً:

-إن الحكومة المصرية بالتأكيد قد أعدت العُدة لمواجهة ذلك.

ونظر لها ياسر حانقاً، وهو يهتفُ:

-ما هذا الهدوء؟ كنتُ أظنكِ ستقيمين الدنيا ولن تقعديها حتى تخليصها مما هي فيه.. ولكن يبدو أن أمرها لا يشغلكِ كونها مصرية، ولم تجمعكِ بها ساحات العمل من قبل، ولم ترتب لكم الأقدار لقاءً ما.

وابتسمت "جهاد" في مرارةٍ وتنهدت بعمقٍ ولم تعلق.. وظل "ياسر" يغدو ويروح حتى فوجئا بصوت طائرات يتعالى في السماء وصوت جنازير دبابات تقترب، وتبادلا نظراتٍ تنمّ عن الدهشة والقلق.

وانطلقا خارجين إلى غرفة القيادة وارتفع صوتٌ عبر مكبرات الصوت ينطق بالعربية الفصيحة آمراً الجنود بإخلاء المعسكر وإلا سيتم تفجيره وهم بداخله.

ووجم الجميع ولم يتحرك أحد، وعاد الصوت يكرر نداءه:

-"على جميع الموجودين بالمعسكر إخلائه خلال دقائق وإلا سيتم تفجيره بما يحويه.. حتى مخزن الطعام ومخازن الذخيرة وذلك عقاباً على الشغب الذي أحدثه الفلسطينيون أمام مبنى الموساد احتجاجاً على زواج السيدة "حياة" من أحد ضباطهم، ومهددين أن أي شغبٍ سيحدث فيما بعد فلن تدفع ثمنه المعسكرات وحدها بل المدنيون هناك في المدن والقرى".

فريقان يتبادلانِ إطلاق النيران أحدهما مجهزٌ بأحدث الأسلحة والآلات الحربية، والآخر يجاهد ببعض الأسلحة البدائية وبكل ما يملك من إيمانٍ بالقضية وحبٍ

للأرض.. فريقٌ استعد للمعركة أتمّ الاستعداد، وفريقٌ فوجئ بها وسيق إليها دون إعداد.

وتساقط الكثير من الشهداء، والكثير جداً من الجرحى وأوشكت الذخيرة على الانتهاء والجنود على التسليم ورفع الراية البيضاء، ونظرت "جهاد" حولها في ذعر، وعلمت أن نتيجة المعركة محسومة من البداية مجرد إطلاق النيران لن يفيد لابد من خدعةٍ ما، ولابد من طُعمٍ يبتلعه الإسرائيليون الآن حتى ينقضي هذا العناء.

وخطر لها خاطرٌ، ولمعت في ذهنها فكرة ما، وتوقفت لثوانٍ؛ لتتأمل ما هي مقدمةٌ عليه وبعد دقائق ألقت سلاحها، واتجهت خارجة من أحد الأبواب السرية للمعسكر، وبعد دقائق أحسّ ياسر بالمأزق هم الخاسرون لا محالة، والتفت إلى جانبه باحثاً عن "جهاد"؛ لأخبارها أنه لابد من الانسحاب فلقد أوشكوا على الانتهاء، ولم ترسل المعسكرات المجاورة إليهم المدد حتى الآن، ولكنه لم يجد "جهاد" فأكمل إطلاق النيران وكلف أحد الجنود بالبحث عنها وإتيانه بها؟

ولسوء الحظ، سرى خبر اختفاء "جهاد" بين الجنود.. ونادى أحدهم بصوتٍ عالٍ:

-لقد قتلت السيدة "جهاد".

وتناهى صوته إلى مسامع "ياسر" الذي شعر أن نيران المعركة قد اشتعلت في جوفه.. سيحارب حتى يستشهد هو الآخر.

وظل الجندي يردد نداءه:

-"لم يعد هناك ما يُخشى فقدانه فلقد فقدنا السيدة "جهاد" فاشتعلت الحماسة في نفوس الباقين منهم، ودفعهم للقتال رغبة الثأر والانتقام لجهاد، وظلوا يرددون قول الرجل في صوتٍ جماعيٍ يبث الرعب في نفوس الكافرين

" لم يعد هناك ما نخشى فقدانه فلقد فقدنا السيدة "جهاد".. جاهدوا حتى آخر رمق".

وسمع الأطباء والممرضون بالخلف هذا النداء، وصرخت "سلمى" وحاولت التقدم إلى المعركة يدفعها الشعور بالفقد والعجز المرير، ولكن يد "حسام" حالت بينها وبين ذلك.

وفجأة، ارتفع صوتٌ غليظٌ من آلالات اللاسلكي الخاصة بالعدو قائلاً:

-السيد "إيلان" يدعوكم للانسحاب من المعركة، هذا القتال جرّنا إليه الفلسطينيون كمحاولة؛ لتشتيت انتباهنا عن محاولة اختطاف السيدة "حياة"، وانسحب الجنود الإسرائيليون واحداً تلو الآخر، وتعجب "ياسر" وفريقه من هذا الانسحاب المفاجئ.

وبعد برهةٍ قصيرةٍ قال أحد الجنود هاتفا بالعبرية:

-هناك خدعةٌ ما إنهم يحاولون تشتيتنا.. لقد أذاع أحد الفدائيين النبأ السابق.. حينها كانت "جهاد" تتسلل من بينهم عائدة إلى فريقها، ولم تكد تلمحُ "ياسر" من بعيد حتى فوجئت بفوهة إحدى أسلحة العدو توجه نحو رأسه.. فحاولت تحذيره لكن صراخها لم يصل إليها فلم تجد بداً من أن تندفع إلى حيث يوجد هو واستقرت الطلقة في

صدرها على مرمى ومسمع من الجميع.. واندفعت سلمى إلى قلب المعركة في محاولةٍ أخيرةٍ؛ لإنقاذها.

****

تعالى رنين الهاتف داخل شقة "جان" الخاصة، وبعد ثوانٍ كان "جان" يهتف:

-ألو.. "جان ميشيل".. مَن المتحدث؟

-إنه أنا " ألبرت ناعوم " يا "جان".. هل ما زلت في شقتك حتى الآن؟

-دقائقٌ قليلة وسأتواجد في قلب الموساد.. لا تقلق بشأن "حياة" إن أمرها يخصني حتى ينتهي هذا الزفاف.. سأشرف على كل فرق الحراسة الخاصة بالزواج من لحظة خروجها من الموساد وحتى وصولها إلى النادي المقصود.. انتهِ أنت من عملك في تدمير المعسكرات الثلاثة تبعاً لخطة "إيلان" في القضاء على المقاومة الفلسطينية فكما قال "إيلان"

" إثارة الفلسطينيين للشغب بسبب زفاف "حياة" دفعتنا لتدمير المعسكرات الثلاث.. لن نجد مبرراً كهذا نستطيع التعلل به أمام أفراد المجتمع الدولي".

-بالفعل لقد قضينا على اثنين منهم والثالث كاد أن يقع.. الأخبار تصلني هنا أولاً بأول .. كما أمرتك بشأن "حياة" فلا بد أن أنهي الحوار معك الآن من أجل مهاتفة "إيلان".

-هل حدث شيءٌ ما؟

-لا.. فقط أردتُ إرسال السيدة المصرية إليه كما طلب.. إنها تحتضر وتوشك أن تموت.. يبدو أنهم بالغوا في تعذيبها، وهي في لحظاتها الأخيرة الآن.

ولم تمضِ دقائق حتى كانت السيدة بين يدي "إيلان" الذي أمر بإرسالها إلى مكان آخر غير شقة والدته التي إن رأت المرأة في حالتها هذه سوف تموتُ هماً وجزعاً.

****

-جهاد.. إنكِ هنا يا حبيبتي.. لا تقلقي إصابتكِ ليست بالخطيرة، وقد نجحنا في استئصال الرصاصة، وأكد الأطباء أنكِ في أحسن حال، وستعودين إلى ساحات المعارك بمجرد انتهاء فترة نقاهتكِ.

وابتسمت "جهاد" في وهنٍ، ولم تنجح عيناها في رؤية "سلمى" التي تتحدث.. لا زال تأثير المخدر يسري في أوصالها، ويغيم على عينيها.

بعد دقائق، استطاعت "جهاد" أن تميز صوت "ياسر" و"حسام" وهما يهتفان" أنهما نجحا في الفرار من السيارات الإسرائيلية التي كانت تراقبهما خلال مجيئهما إلى هنا، والتي بعد ثوانٍ تحولت مراقبتها إلى مطاردة، ولكنهما أخيراً نجحا في تشويشهما، والوصول إلى هنا بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بقصف مشفى "الجلاء التخصصي"؛ لحرمان الفلسطينيين من العلاج وخاصةً جرحى ومصابي القصف الأخير في المعسكرات، فما كان من قائد المقاومة إلا أن أرسل إعلاناً يعلم فيه جميع الفرق أن المكتب السري لتوزيع المنشوراتِ وعقد اللقاءاتِ قد تحول من الآن إلى مشفى خاص بأفراد المقاومة، وأنه حاول تجهيزه ببعض الأجهزة المدخرة منذ مدة لمثل هذا الظرف.

ولم يكد "حسام" يُتم حديثه حتى صرخت "سلمى" بابتهاجٍ وهي تهتفُ:

-"جهاد".. انظري لقد أعددتُ لكِ مفاجأة.

وحاولت جهاد النظر بصعوبةٍ حيث تشير أصابع "سلمى" ، ولم تكد تلمح الواقفيْن هناك حتى شهقت من هول المفاجأة، وهي تهتفُ في بكاءٍ واضحٍ :

-سامحاني.

واقترب منها العم "محمود" تتبعه الأم؛ لتضمها في لهفةٍ وحنان وكأنها تضم وليدتها التي فقدتها منذ زمن، وأمسكت "سلمى" بالكاميرا الخاصة بها وهي تهتفُ:

-لابد من توثيق هذه اللحظة.. وضغطت زر تصوير الفيديو.

وفي نفس اللحظة، تناهى إلى مسامعهم صوت همس إحدى الممرضات آتية؛ لتغلق باب الغرفة وهي تهتفُ:

-لقد وصل للتو أحد أهم أفراد المقاومة بعد أن أجريت له جراحة عاجلة في لندن.. الرجاء التزام الهدوء؛ لأن حالته غير مستقرة، وسيرقد في الغرفة المجاورة.

وزاد الفضول لدى "حسام"، وتقدم خارجاً من الغرفة يدفعه الحسّ الصحفي؛ ليرى مَن هذا الذي يقولون عنه إنه أحد أهم أفراد المقاومة؟

وفي الطرقة الخارجية لمح امرأةً تبدو في منتصف الخمسينيات من العمر لكن حالتها يرثى لها، ويبدو أنها تعرضت للتعذيب الشديد فلم يجد فرصةً أفضل من هذه؛ لإجراء حوارٍ صحفي مع المرأة.. من المؤكد أنها ستفارق الحياة قبل أن تكمله لكنها فرصةٌ لن تعوض؛ لإخبار العالم ما تفعله إسرائيل بمعتقليها من النساء.

وعاد مسرعاً إلى غرفة "جهاد" والتي ساءت حالتها بعدما علمت بنجاح العدو في تدمير المعسكر.. اطمأن عليها "حسام" وأخبر "سلمى" بما يود فعله، وبالفعل

خرجا إلى السيدة.. وفي منتصف المسافة إليها مرّا بالغرفة المجاورة فألقيا نظرة على الراقد فيها، والذي تدعي الممرضة أنه أهم رجال المقاومة، ولم تكد "سلمى" تلمحه حتى ندت من بين شفتيها شهقة تعجبٍ وهتفت:

-"طارق محمود دراز".. كيف ذلك؟!

****

لم يَعُد "إيلان" إلى شقته تلك الليلة.. ظل ساهراً في أحد المقاهي القريبة من مقر عمله.. شرب كوباً من عصير البرتقال، ثم أكل بعض التوست الطازج، وشرب بضع أقداحٍ من القهوة حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثانية صباحاً فترك مقعده، وتحرك في هدوءٍ نحو الباب الخارجي للمقهى.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى كان "إيلان" أمام غرفة الأسرى الخاصين بالموساد.. توقف أمامها لثوانٍ فسمع أصوات همهماتٍ بالداخل توحي بأن "حياة" ليست بمفردها، وعندما حاول فتح الباب وجده مغلقاً فأدخل بطاقته المعدنية من خلال الفراغ الذي بين الباب والإفريز وحركها إلى أعلى وإلى أسفل، وبعد ثوانٍ كان الباب مفتوحاً، ولم تكن "حياة" وحدها بالداخل بل يقف إلى جانبها "جان" شاهراً مسدسه في وجه "إيلان" وتساءل "إيلان" في عنفٍ:

-ماذا تفعل هنا يا هذا؟

-أنا المكلف بمهمة تأمين هذه الأسيرة.. ودعني أسألك:

-ماذا تفعل أنت هنا؟

-إذا كنتَ مكلفاً بتأمينها فالطبيعي أن تكون خارج الزنزانة لا داخلها.

-الأمر يخصني وحدي.. فلا تحشر أنفك فيما لا يخصك، وإلا فرغت هذه الرصاصات في جمجمتك.

قال "إيلان" ساخراً:

-ولكنك أجبنُ من أن تفعل؟

-أتراهنُ؟

-ليس هذا وقتٌ للمراهنة.

-إذن لماذا أتيتَ إلى هنا يا "إيلان"؟

-سأجيبك الآن.

وفي سرعة البرق، انقض "إيلان" على "حياة" وكانت بين يديه موجهاً مسدسه الصغير إلى رأسها.. واضطرب "جان" ولم يدرِ ماذا يفعل؟

وحاول أن يتكلم بهدوءٍ قائلاً:

-هل جئتَ لاختطافها؟

-ليس بالضبط.

-إن أمرها يخصني، بناءً على أوامر "ألبرت".. وتحت توجيهات الرئيس.

وفجأةً سقطت من بين ملابسه ورقةٌ صغيرةٌ وتذكرة سفرٍ كُتب عليها بضعة أحرفٍ بالعربية.

واقترب "إيلان"؛ ليلتقطها لكن رصاصة "جان" كانت أسبق.. وحاول "إيلان" أن يتفادى الرصاصة المتجهة نحوه فمال يميناً فاستقرت الرصاصة في كتف "حياة" والتي صرخت بشدة، وكادت أن تسقط أرضاً فحاوطها "إيلان" بذراعه

محاولاً منعها من السقوط.. واستقرت رصاصة "جان" الثانية في ساق "إيلان" اليسرى.

وقبل أن يستوعب "إيلان" ما يحدث حاول "جان" حمل "حياة" بين يديه ولكنها هتفت في وجيعة:

-اهرب أنت يا "جان".. سأموت بالتأكيد، وتهريب جثتي لا يستحق كل هذا القدر من العناء.

فقال "جان" في تأثرٍ بالغٍ:

-إياكِ أن تتفوهي بمثل هذا الكلام ثانيةً يا سيدتي.. لابد أن أعيدكِ إلى مصر حتى لو كلفني هذا حياتي.. هذا ما وعدتكِ به منذ البداية.. هيا تماسكي واستندي عليّ.

وقبل أن تستند عليه، نظرت "حياة" إلى "إيلان" في تساؤلٍ فأمسك جان بمسدسه وصوبه تجاه رأس "إيلان" وضغط الزناد.

****

عاد "حسام" إلى الغرفة مسرعاً، وهو يهتفُ:

-لقد عاد "طارق" إنه في الحجرة المجاورة.

واندفع الجميع إليها، وعلا صوت أم طارق وهي تهتفُ:

-لا تعذبني بالوهم يارب.

وبعد ثوانٍ كانت في داخل الغرفة منكبة على "طارق" تحضنه وتشمه وتقبله وكأنها تحتضن أغلى شيءٍ لديها.

ووقف العم "محمود" إلى جانب الفراش يراقب ما يحدث وابتسامة جميلة هادئة تزين مبسمه.. وعلى مسافةٍ منهما تقف "سلمى" وإلى جانبها "حسام" وهما يقومان بتوثيق هذا المشهد الذي تبثه المحطة الخاصة بهما بثاً مباشراً الآن كنوعٍ من بث الأمل في نفوس فاقديه بعد أن تم تدمير المعسكرات الثلاث.

وبعد دقائق، أدخل الممرضون المرأة المعذبة التي رآها "حسام" في الممر قبل دقائق يتبعها ثلاثة من الأطباء، وتحدث أحدهم قائلاً:

-إن حالتها خطرة، ويُفضل خروجكم من هذه الحجرة فهي خاصة بالمرضى أصحاب الحالات الحرجة.

وطلب "حسام" إجراء لقاءٍ معها، فرفض أحد الأطباء معللاً بأن حالة المرأة لا تسمح بالحديث مطلقاً، وأثناء هذه المداولات طرقت "جهاد" باب الغرفة وهي تجلس على كرسي متحرك تجره بها إحدى الممرضات، ونظرت "جهاد" إلى "طارق"، وحاولت جاهدة أن تخفي قلقها ولهفتها عليه.. والتفت "طارق"؛ ليرى "جهاد" ملفوفٌ صدرها بالضمادات البيضاء والتي تتوسطها بقعة كبيرة حمراء.

نظر إليها نظرة هادئة ثم هتف:

-سامحيني.. لقد أسأتُ الظن بكِ ونسيت أن " بعض الظن إثم "!

وأشارت "جهاد" إلى الممرضة كي تقربها من فراش "طارق" الذي هتف:

-لقد عاقبني الله أشد العقاب جزاءً على ما فعلته بكِ.. نعم غادرتُ الغيبوبة لكن الشلل قد استوطن قدماي.

هتفت "جهاد":

-لا تجهد نفسك في الحديث يكفيني أنك ما زلت حيّاً وموجودٌ أمامي الآن.

-هل أنا مهمٌ إلى هذ الحد؟

-وأكثر من ذلك.

وصمت "طارق" للحظة ونظراته تتحسس وجهها بينما هي صامتة ترقب جسده الطويل الممدد على الفراش وأخيراً هتف:

-عندما قرأتُ الخطاب انتابني شعورٌ مروعٌ لم أعرفه من قبل.. شعور الذي يفقد ابنته من بين يديه.

-ابنته!!!

-نعم.. ابنتي.. أنتِ ابنتي يا "جهاد" قبل كل شيءٍ لقد كبرتِ وترعرتِ أمام عينيْ.

هتفت "جهاد":

-عندما عرفت ما حلّ بك تيقنتُ أنك لم تكن شخصاً عادياً بالنسبة إليّ كما كنتُ أشعرُ دائماً لأول مرة أحسّ أنك شخصٌ عزيزٌ، يروعني أن أفقده.. لأول مرةٍ أشعر أنك لم تكن مجرد رجلٍ تربيتُ معه.. كنتَ بالنسبة إليّ خليطٌ من الأب والأخ والابن.

وفرح "طارق" لقولها وأصابه شعورٌ عجيبٌ.. شعورٌ بالمتعة واللذة الخفية التي كادت أن تنسيه أنه فقد قدميه.. ولم يعد يهمه وجودهما بعد الآن ما دامت هي هنا.. هي سنده ومتكئه بعد هذه اللحظة.. صحيحٌ أنه لم يكن يتوقع أنها تكنّ له مثل هذا الشعور لكنه يشعر بالأمانة والصدق في كل ما قالته.

والتفتت "جهاد" إلى الموجودين، وكست وجهها حمرة الخجل، وقبل أن تتكلم قال "طارق":

-لكنني مندهشٌ أشد الاندهاش من تصرفكِ.. لماذا أخفيتِ علينا كل هذه المدة وجود أخاكِ بيننا؟

وتساءلت "جهاد" في عدم فهمٍ:

-أخي؟!

-نعم.. أخاكِ الوحيد.. لقد قرأتُ خطابه الثاني بنفسي، وجئتُ مسرعاً كي أخبركِ، وأعتذر منكِ لكن حدث ما حدث.

وهزت "جهاد" كتفيها في عدمِ استيعابٍ وهي تهتفُ:

-أيُّ خطابٍ؟

-تعلمين أن سبب آخر نزاعٍ بيننا كان هذا الخطاب الذي وقع في يدي، والذي أرسله لكِ أخوكِ.. حينها لم أكن أعلم أنه هو المرسل، وظننتُ أنكِ مرتبطة برجلٍ ما وتخفين عنا ذلك.. وبعدما رحلتِ وقع في يدي خطابه الثاني والذي فهمتُ من حديثه فيه أنه أخاكِ الوحيد.

وشرد ذهن "جهاد" وركزت بصرها في زاوية الغرفة تحاول أن تفهم ما يتفوه به "طارق"، وجذبها من شرودها فجأة صوت تلك المرأة الراقدة في جانب الغرفة وهي تأن أنّاتٍ متقطعة ثم هتفت بصوتٍ واهنٍ:

-يوسف.. جهاد.. الملتقى الجنة.. وصرخت "جهاد".

****

فتح الباب، وتشتت تركيز "جان" فطاشت رصاصته في الهواء ودخل "ألبرت" وهو يهتف حانقاً:

-ماذا تفعلان هنا؟

وتحدث "جان" في سرعةٍ وتوترٍ قائلاً:

-لقد أتى "إيلان" إلى هنا محاولاً قتل "حياة" ولم يعتد بقولي أن موت "حياة" ليلة زفافها سيشكل فضيحة كبرى إلى إسرائيل فاضطررتُ إلى إصابة ساقه حتى أتمكن من الفرار بها إلى مكان آمن فلقد منح "إيلان" إجازة لكل أفراد الأمن الذين يعملون هنا في هذا القبو السري.

ونظر ألبرت إلى "إيلان" الذي لم ينفِ إهانات "جان" الموجهة إليه، وأشار "ألبرت" إلى "جان" أن يكمل ما كان يفعل، وأن يضع "حياة" في مكانٍ آمنٍ.

وتساءل "ألبرت" موجهاً سؤاله إلى "إيلان":

-هل ما نطق به "جان" صحيحاً؟

ونظر إليه "إيلان" في عدم اكتراثٍ قائلاً:

-إنه دائماً ما يهذي بكلامٍ لا صحة له.. ألا تعرف أنت ذلك؟ إنه مخبولٌ ولا هدف له إلا الصعود إلى قمة المجد حتى لو كان الصعود على كتفي.

-دع الحديث جانباً الآن، وهيا إلى المشفى.. إن جرحك ينزف ولا بد أن نخرج الرصاصة قبل أن تتفاقم حالته.

-إنها إصابة سطحية.. أعتقد أن الرصاصة اخترقت اللحم فقط، ولحسن الحظ لم تصل إلى العظم.. سأضمدها مؤقتاً برباط عنقي حتى لا أفقد الكثير من الدماء فلابد أن

أعود إلى المنزل أولاً حتى أتابع أمر السيدة فكما تعلم إن حالتها خطرة، ومن المحتمل أن تفارق الحياة قبل أن تقابل والدتي.

واتجه "إيلان" إلى الخارج تاركاً لألبرت أمر إعادة الأمن والحراسة كما كان.. وبمجرد خروج إيلان قلّب "ألبرت" شفتيه في شكٍ وهو يهتفُ:

-لابد أن هناك لغزاً ما لا أفهمه، ولابد أن أعمل جاهداً على حلّه.

****

ظلت "جهاد" تصرخ بهستريا مفرطة وسط ذهول الجميع إلى أن جاء بعض الأطباء محاولاً تهدئتها، وهو يتساءل جزعاً:

-ماذا هناك؟ لماذا ساءت حالتها هكذا؟ هل حدث شيءٌ ما؟

ودخل طبيبٌ آخر يهتفُ بعصبيةٍ واضحةٍ:

-كفوا عن هذه الضوضاء.. لقد جاء الرئيس في زيارةٍ فريدةٍ من نوعها.. كما أنه مصابٌ في ساقه ولابد من استخراج الرصاصة، وتضميد جراحه.. فضلاً التزموا الهدوء.

وتساءل "ياسر" في تعجبٍ:

-الرئيس بنفسه؟!

-رئيس المقاومة الفلسطينية بشخصه يا سيدي.. إنه مصابٌ بالخارج.

-إنها فرصةٌ لا تعوض.. هلاّ سمحتم لي بلقائه؟

جاءهم صوتٌ من الخلف قائلاً:

-لقد جاء بنفسه؛ ليلقاكم يا "ياسر".. فكما قلتَ إنها فرصةٌ لا تعوض.

والتفت الجميع إلى مصدر الصوت.. ونظرت جهاد إلى الواقف أمامها في دهشةٍ وعدم تصديق وثبتت عينيها على وجهه وهي تتمتم:

-يا إلهي.. هل ما أفكر به صحيح؟

وفي نفس اللحظة، دخل إلى الغرفة أحد الملثمين يحمل جريحة بين يديه، وهو يهتف بصوتٍ فزعٍ:

-أغيثوها إنها السيدة "حياة حمدي".. لقد أصابها الوغد في كتفها.

وبتر عبارته بغتة رؤيته لإيلان الذي يقف قبالته تماماً.. فشهق "جان" في دهشٍ وهو يهتفُ:

-"إيلان"!!!

وصرخت "جهاد":

-رحماك يارب.

وتكلمت "حياة" بصوت واهن عندما سمعت صوت "جهاد" قائلة:

-هل التقينا ثانية يا "جهاد"؟

وتلعثم "جان" في ضيق قائلاً:

-إن "إيلان" هنا.

وجاء صوتٌ من آخر الغرفة قائلاً:

-بل قل" يوسف هنا ".. إنني أحسّ به وأشمّ رائحته.

وحاولت "جهاد" التقدم إليه فانقلب بها الكرسي المتحرك، وركض "إيلان" محاولاً إنقاذها وضمها بين ذراعيه.. ونظرت "جهاد" في عينيه بعينين تملؤهما الدموع، وهي تهتف بصوتٍ تخنقه العبرات:

-هل حقاً التقينا؟

وطبع "إيلان" قبلة على جبينها دون أن ينطق.

وتقدمت إليهما "حياة" تمشي ببطءٍ.. وما إن وصلت إليهما حتى ابتسمت في وهنٍ قائلة:

-لا أصدق أنني معكما الآن.. عاد بنا الزمان إلى حارة بالإسكندرية.. عادت بنا الأيام واجتمعنا مجدداً.

وتساءل "ياسر" في عدم فهمٍ:

-أنا لا أفهم شيئاً من هذا.

ورد "جان" بابتسامةٍ مشرقةٍ:

-ولا أنا.. لكن الذي أعلمه أن هذا هو "إيلان كوهين إيرائيل".. أهم ضابط مخابرات إسرائيلي.. لكن على ما يبدو أنه شخصٌ آخر أكثر أهمية.

فأتبع "إيلان":

-شخصٌ فقد والدته وأخته الوحيدة، وتربى في بيت السيدة التي قتلتهما بعد أن تبنته، وأقسمت أن تجعل منه يهودياً عظيماً بعدما جذبها إليه حماسته وذكاءه المتقد.. فأقسم هو أن يزداد إسلاماً على إسلامه.. وأن يمتلئ عروبة على عروبته.

فأكمل "ياسر" فأصبح قائداً لقوات المقاومة الفلسطينية، والمسؤول عنها بكل أقسامها.. من قسم المناوشات وحتى قسم التبرعات.

وتشبثت "جهاد" في ملابسه أكثر ونظر إليها "إيلان" قائلاً:

-كنتُ أراكِ أمام عيني كل يومٍ، ودون أن يكون لي الحق في احتضانكِ أو تقبيلكِ، نشأتِ يتيمة بدوني، ونشأتُ يتيماً بدونكِ.. كثيراً ما قررتُ الذهاب إليكِ وإخباركِ بحقيقتي لكن المراقبة الشديدة منعتني كلما حاولتُ التقرب منكِ وإخباركِ بهويتي.. منعتُ نفسي من ذلك خشية على المقاومة أن تندثر من بعدي إذا علموا عني شيئاً.

كنتُ تماماً كمن يضغط على البنزين والفرامل في سيارته فالسيارة تحترق دون أن تتقدم شبراً واحداً.. وكثيراً كثيرا ما قاومتُ اشتياقي إليكِ واحتياجي لكِ، اعذريني ياجهاد وسامحي فظاظتي معك كنت مضطراً لذلك، مراقبة ألبرت الشديدة علي اضطرتني لإطلاق الرصاص عليك، إن لم أفعل شكوا في أمري وقضوا علي، لم أتعلق بالحياة من أجل هواً في نفسي، فلقد فقدت لذة الحياة منذ أمد بعيد منذ أن ألقى الرجال بأمي وأختي أمام عيناي.. من وقتها وأنا بقايا إنسان أجبرته ظروفه أن يعذب أحبابه كل يوم.. أن يطعن قلبه بنفس السكين الذي يطعنهم به، كنت كالنيران التي لم تجد ما تحرقه سوى نفسها..!

صدقوني أنا المتألم والخاسر الوحيد في هذه الحكاية، كلكم كنتم تكرهون إيلان إيريائيل وتحاولون قتله والتمثيل به والانتقام منه، أما هو فكان يكن لكم كل الحب.. ويتمنى لكم كل الخير، ويخشى أن يصيبكم ضرر فيصيبه ضعفه.. لم أكن أتمنى من هذه

الدنيا شيء سوى أن تجمعني بكم ولو لمرة واحدة قبل أن أموت لككني في كل مرة كنت أردد على مسامعي:

-عليك أن تتقبل فكرة أن ثمة أمور لن تحدث أبداً وهذا لا علاقة له بمدى شغفك بها، وعدد محاولاتك لها، أو مقدار جهدك المبذول!

كلكم يعرف من هو إيلان إيريائيل القوي المتغطرس ضابط الموساد العظيم، لكن لا أحد يعرف من أنا، ما هي حقيقتي، ماذا أحب ما الشيء الذي أكره، لا أحد يعرف كم مرة خذلت وثقبت روحي.. لا أحد يعرف كم مرة شعرت بالوحدة رغم مجاورة الجميع، أنا شخص مؤثر في حياة الجميع لكن لم يغامر أحد ليصبح مؤثراً في حياتي!

ونظر إلى "حياة" ثم أكمل:

-كنتُ اعتبر ذكرياتنا معاً رصيداً من المتعة ألجأ إليه كلما استبد بيَ الضيق، واجتاحني الملل وغلبني الشوق واستهوتني الأماني.. كنتُ أتوق إلى حديثكما، ولطالما رسمتُ الخطط للقائكما لكنني في كل مرةٍ كنتُ أتراجع في اللحظة الأخيرة.. سامحيني يا "جهاد" على تقصيري في حقكِ فقد كنتُ كالقريب البعيد.. قريبٌ منكِ إلى أقرب حد.. وبعيدٌ عنكِ إلى أبعد مدى.

وأنتِ يا "حياة" سامحيني على ما فعلته بكِ لم يكن ما حدث ضمن خطتي التي رسمتها لكِ.. لكنها الدنيا التي صممت على كسري في كل مرة صممت فيها على الانتقام منها وكسرها، ثم أتبع حاولت جمعكما بزنزانة واحدة علكما تعرفان بعضكما فيهون هذا عليكما ماكنتما فيه.

وعادت المرأة الموجودة على الفراش تأنّ أنّاتٍ متقطعة، وهي تهتفُ:

-الحمد لله.. التقينا قبل أن أموت.

وترجل "إيلان" ووضع جهاد إلى جانب أمها وربت بيده على يدها، وهو يهتفُ:

-لقد كنتُ أنا السبب في اعتقالكِ.

-لا تقل هذا يا بني.. أنا من كنتُ السبب.. بعدما وضعتُ "جهاد" في بيت أولئك الطيبين، عدتُ ثانية إلى البحر؛ لأنادي عليك حتى تُخرج الأمواج لي جثتك كاعتقادٍ مصري قديمٍ.. لم أكن أعلم أن المرأة قد تبنتك واختارتك لها.. وفي ذلك الوقت، كانت السيدة قد أرسلت عيونها؛ للتأكد من غرقي حتى لا أفسد عليها خطتها فأسروني وأساموني سوء العذاب.

ونطق العم "محمود" في تأثرٍ:

-المهم أنكم التقيتم بعد كل هذا الفراق.

وهتفت "حياة":

-لكن هناك جزءٌ ناقصٌ من الحكاية.. ويجدر بي أن أحكيه الآن.. هذا الجزء جئتُ إلى فلسطين بسببه.. وسافرتُ خصيصاً مع "إيلان" بحثاً عنكم؛ لأخبركم إياه.

ونظرت إلى المرأة قائلة:

-لقد زارنا زوجكِ يا خالتي بعد رحيلكِ مع "إيلان" و"جهاد" وبعدما تركتما مصر بثلاثة أيامٍ فقط.. كان لا زال حيا يرزق.. ووضع على عاتق أمي إخباركما بأمرٍ ما إذا عدتم إلى مصر ثانية، وطلب منها البحث عنكم حال عدم عودتكم لكن أمي ماتت قبل أن توفي بوعدها لكم.. وتركت عبء إخبار السر على عاتقي أنا.

ونظر إليها الجميع في ترقبٍ فهتفت:

-لقد أخبر أمي أنه لم يكن أردني الأصل كما قال لكِ.. لقد كان يعمل ضمن الجيش العربي المشترك ولم يقم بإخبارك بذلك خشية أن يحنث القسم الذي أقسمه عندما انضمامه إلى هذا التحالف العربي واكتفى بإخبارك أنه أردني لكنه في الحقيقة كان فلسطينياً.. ولد ونشأ وترعرع في غزة واسمه العم"علي دراز".

وشهق الجميع وتمتم طارق في دهشةٍ:

-ابنة عمي!!!

واقترب العم "محمود" من "إيلان" و"جهاد" يضمهما إلى صدره هاتفاً رغم دموعه:

-أنتما أبناء أخي الوحيد.. أيعقل؟!

وفي تلك اللحظة، دخل "ألبرت" بأوداجٍ منتفخة، وعروق بارزة يتبعه ثلاثة من الحراس وبدون إنذار صوب مسدسه تجاه "إيلان" وضغط الزناد وهو يهتفُ:

-هذا ثمن الصداقة يا صديقي العزيز.

وصرخت "جهاد" واندفعت صوب الرصاصة تتلقاها بدلاً عنه فاستقرت الرصاصة في قلبها فتعالى صراخ الجميع.

انكب عليها "إيلان" يقبلها، ويتحسس شعرها برفقٍ وهو يهتفُ:

-لا تتركيني.. إياكِ أن تغادري سريعاً هكذا.

وشدت "جهاد" على يديه برفقٍ دون أن تنطق.. ونظرت تجاه "طارق" الذي أغرورقت عينيه بالدموع عاجزاً عن التفوه بأي شيءٍ ثم حولت بصرها إلى "حياة" وهي تهتفُ:

-كنتُ أتمنى أن نمكث معا لمدة أطول.. وكنتُ أتمنى أيضاً أن نعيد ذكرياتنا معاً، وأن أعود إليكِ في الإسكندرية، وأوفي لكِ بوعدي الذي قطعته على نفسي.

وربتت "حياة" على يديها، وقد كست ملامحها شبح ابتسامةٍ وهتفت:

-سينجكِ الله؛ لتفعلي كل ما تمنيتي فعله.

وألقت "جهاد" نظرة على جميع الموجودين، وحاولت أن تنظر إلى "سلمى" و"حسام" و"ياسر" لكن عينيها زاغت وتحشرج صدرها، ولم تستطع أن تسحب الهواء إلى رئتيها فلم تستطع الحديث وأغمضت عينيها، وعادت إلى الأنين الخافت المتقطع فاقتربت منها "سلمى" مبهورة الأنفاس، مرهقة الأعصاب، وهتفت بصوتٍ يعلوه النشيج:

-لن تذهبي يا "جهاد".. كلنا فداءٌ لكِ.. حياتكِ الذاخرة بالعطاء لا يمكن أن تذهب سدىً هكذا.

ونطق "ألبرت" في حقدٍ بالغٍ:

-سنبيدكم كلكم.. لن ندع منكم أحداً على ظهر هذه الأرض.. وأطلق رصاصته الثانية والتي استقرت في ظهر "إيلان".

ونظر "إيلان" إليه نظرة لومٍ وعتابٍ ثم حوّل بصره مبتسماً إلى "جان" وهتف بصوتٍ متحشرج: قبل أن أموت أود ان أخبرك أنني أحبك ياجان ليتني علمت

حقيقتك من قبل، ليتك اخبرتني من تكون.. وتساقطت أدمع جان دون أن ينطق بحرف لكنه انحنى وطبع قبلة حانية على رأس إيلان الذي هتف سامحوني جميعكم، سامحوني على ماسببته لكم من عناء وحول بصره ناحية جهاد قائلاً

-سنرحل سوياً يا "جهاد" لا قلق ولا فراق بعد اليوم.

وشد كل منهما على يد الآخر في رفقٍ .

وسكنت "جهاد" و"إيلان" إلى الأبد، لم يخرج منهما أي صوتٍ لا أنين ولا صوت متقطعٍ ولا حتى حسيس أنفاس.

رحلا في ألمٍ ووجيعةٍ كما عاشا في ألمٍ ووجيعةٍ.. أبت الدنيا أن تجمعهم وعز على القدر أن يسعد قلوبهم ولو بلقاء خاطفٍ سريعٍ فكان الموت بهما أرحم من الحياة.. لقد فرقتهم الحياة وجمعهم الموت ولم يبق منهما سوى ذكرى سنرددها للأجيال القادمة كما أرددها أنا لكِ اليوم حتى تتعلمي منهما معنى التضحية ومعنى الصبر على الابتلاء .

انحدرت دموع فاطمة على وجنتيها وهتفت متسائلة:

-هل لازلت تحبها بابا طارق؟

-ولن أحب أحداً مثلها.. لقد عاشت وحيدة وجاهدت وحيدة ولم يرحمها في حياتها أحد حتى أنا كنتُ شر أقربائها لكن عزائي الوحيد أنها قد سامحتني قبل أن تموت.. لا زلت أذكر نزاعاتي معها وهي طفلة.. لا زلت أذكر وصفي لها باللقيطة والخائنة .. لا زلت أذكر ابتسامتها ودموعها وضحكاتها وبكائها وحتى آلة تصويرها.. كانت طيبة وجميلة وطاهرة.

السلام عليها يوم ولدت ويوم ماتت ويوم تبعث حية!

-وماذا عن ابن عمك إيلان.. هل كان طيباً كما أظن؟

-نعم .. كان أطيب مما تظنين.. لا أتخيل أنه كان لي ابن عمٍ في هذه الحياة ولا أتخيل أن ابن العم هذا كان هو إيلان إيرائيل الذي لطالما خططتُ لاغتياله أنا وياسر وزملائنا في فرق المقاومة.. عجيبٌ أن يصدمني القدر أن ابن العم هذا الذي كثيراً ما حاولتُ قتله هو رئيس المقاومة الفلسطينية نفسه.. فالسلام عليه أيضاً يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

هذه هي يا فاطمة حكايتي كما طلبتي أن أحكيها لكِ.. أعلم أنها أحزنتكِ لكن الجانب المشرق منها عظيم يكاد نوره أن يضيء ظلام هذه الأرض.. احكيها لأبنائكِ من بعدي ولكل مَن عرفتي ومَن لم تعرفي.. وأخبريهم إن " بعض الظن إثمٌ".. وأن معظم ما نراه صحيحاً قد يكون خاطئاً.. وأن بعض ما نراه خاطئاً قد يكون غير ذلك.. وأن لله في تصريف أمورنا حكمة، وأن الله قد يبتلينا ليصلح في قلوبنا شيئا لن ينصلح إلا بالابتلاء!

تمت بحمد الله